الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبـــارك

علاج النفس — الخادع المخـدوع — مداخل الشيطان — صـورة إسلامية — الناقد الجميل

علاج النفس

كتب إلينا حضرة (...) الموظف بوزارة المالية خطاباً يذكر فيه أنه يعاني أزمات نفسية تتمثل في تجسيم الخلاف الذي يثور بينه وبين أهله وأصدقائه من حين إلى حين ، وهو يستحلفنا بالله أن ندله على طريق الخلاص من هذه الأزمات السُّود

ونحن من جانبنا نستحلفه بالله أن ينظر في الصور الآتية :

١ — رجلٌ صائم يشعر بأن الصيام قد يحمله على سرعة الانفعال ، فهو يتجنب الاصطدام بالناس ، لئلا يؤذيهم بغير حق

٢ — رجلٌ ترك التدخين بعد طول العهد بالتدخين ، فهو يعرف أنه في الأيام الأولى محتاج إلى التصبُّر ، ومضطر إلى البعد قليلاً من المجتمع ، لئلا يحمله ضيق النفس على الوقوع في محرجات لا تليق

٣ — رجلٌ مأزوم يخفي كربه عن زوجته وأبنائه ، فهو يبتعد عامداً عن الحديث في المطالب المعاشية ، لئلا تلوح فرصة يثور فيها كربه فتنفرج شفتاه عن بعض الألفاظ الفلاظ في إيذاء الزوجة والأبناء

٤ — قاضٍ ينسحب من الجلسة وقد أحسَّ بنوبة مَرضية خوفاً من الإضرار بالمتقاضين ، لأنه يعرف أن العلة ولو كانت خفيفة تعرّض أحكامه للاعتلال

٥ — مدرس غاضب على أحد التلاميذ ، وهو لحرصه على النزاهة يرفض امتحان ذلك التلميذ ، لئلا يؤثر غضبه في تقدير الدرجات ، وهو نوع من القضاء

٦ — غريب يشعر بالضجر من أحد البلاد ، فيمنعه العقل من اغتياب ذلك البلد ، إيماناً بأن الغربة قد تلوِّن أحاسيس المغتربين بالحزن والانقباض ، فهم يرون الدمامة ويعمَوْن عن الجمال

٧ — خصمٌ شريف يعرف أن الخصومة قد تُفسد أحكام الرجال على الرجال ، فهو يحاسب نفسه قبل أن ينطق بكلمة تسيء خصمه اللدود

فما رأيك في هذه الصور السبع ، ولها أمثال تفوق الإحصاء ؟

إن كان حكمك على هذه الصور يوافق أحكام أولئك الرجال فادرس نفسك وزمانك لتعرف أنك معرض لآفات نفسية تفرضها عليك الظروف في هذه الأيام « البيض »

إحترس كل الاحتراس من نفسك في هذه الأوقات ، واعلم أن سلامة الأعصاب تعرضتْ لمصاعب لا تطاق ، ومن النادر أن تجد رجلاً يساير الحياة بقلب سليم ، وقد قضت متاعب الحرب بأن يصير الناس جميعاً مجنَّدين ، ولو كانوا من سكان المناور والكهوف

يومك الحاضر متعب ، ولا تمر فيه لحظة بلا منغصات ، ولذلك أرجوك أن تسارع فتتهم نفسك قبل أن تتهم الأهل والأصدقاء عند اشتجار الخلاف

الملهمون الذين لا يكذبون ، وبسطوا للناس من أوصافها ما يأذن بحب كهذا الحب ، وجدٍّ كهذا الجد ، وطيبة كهذه الطيبة ، وكرامة كهذه الكرامة ، وإن كثرت من فوقها الفقاقيع التي تحجب القاع ، وتخدع فيه الأبصار والأسماع

وضمان هذه الحقيقة أن القلب الإنساني حيث كان يفقد قابلية العيش إذا هو فقد قابلية الحب الذي يعز عليه أن يضيع ، والذي يؤثر أن يضيع الحياة ولا يضيعه وهو باق بعده بين الأحياء

إذا فني من قلب الإنسان في أرجاء الدنيا هذا المعين المقدس فهي الدنيا الفانية أو هي الأسطورة التي يستحمقها الخيال قبل أن تستحمقها العقول

وهذا هو الكشف الذي من أجله وحده تستحق رواية « الحب الضائع » أن تقرأ وتحفظ ، وفيها غير ذلك ما تستحق من أجله القراءة والحفظ والتأمل الطويل

* * *

وقد اشتمل غلاف الرواية على توابع أخرى من القصص الصغار التي تنتهي الواحدة منها في بضع صفحات ، تختلف في نمط التأليف وفي سرد الحادث وصور الأبطال ، ولكنها تتفق في مزية واحدة تحمد للمؤلف الكبير ، وهي مزية الجد في تصوير العاطفة التي هانت على ألسنة الناس وعلى نفوسهم في مجالس أهل الفضول .

فليس الحب الذي تحكيه هذه القصص الصغار نزوة جسد ، ولا مشغلة فراغ ولا لعبة هازلين ، ولكنه كما يجمل بالإنسان كأس تصلح أن يملأها اللوت كما تصلح أن تملأها الحياة ، وتغترف من معين كامن فيما وراء الطبيعة كما تغترف من معين يسطع عليه نور الشمس وتخفق عليه نسمات الفضاء .

عباس محمود العقاد

ومن المؤكد أن « مرض العصر » لا يمسك وحسك . لأنه وباء، والوباء لا يقتصر شره على الأفراد ، فهو يمس جميع بلا استثناء

فهل تكون عند حسن الظن بك فتقف موقف المنتصب من مرضاه ؟

ومع من تجشم الخلاف ؟

إنك تعامل أقواماً ضعفت أعصابهم أقبح ضعف . بسبب المضجرات التي ساقتها أعوام الحرب ، فهم في حقيقة الأمر مرضى لا أصحاء ، والعاقل لا يطالب المريض بما يطالب به الصحيح

وأنا مع هذا أنصحك بما لا أنصح به نفسي . فإنما كتبت هذه الكلمات في أعقاب ثورة نفسية قطعت بالقطيعة بيني وبين صديق لا ذنب له غير العيش في أيام تجشم فيها أشباه المعوقات

وما جاز عندي أن أنصحك بما لا أنصح به نفسي . إلا لأني أرجو أن تكون قدرتك على نفسك أكبر من قدرتي على نفسي ... وليتك تتأدب بأدبي ، فأنا لا أقطع حبل صديق إلا بعد الصبر عليه عدداً من السنين الطوال . ثم لا يكون عقابه غير الهجر الجميل

لطف الله بي وبك ، وهداني وهداك ! !

الخادع المخدوع

هو من يوهمه اللؤم أو توهمه الحماقة أن صداقات الرجال تنال بالرياء ، وأن لُطف المحضر يغني عن صدق المغيب

الصديق الحق هو الذي يستطيع أن يغزو قلبك بأشعة روحانية توحي إليك أنه أنيسك في النعماء ، وحليفك في الضراء . وأن وداده الصحيح هو القبس الذي تستضيء به عند اعتكار الظلمات

الصديق الحق هو الذي يدرك بوضوح أن الصداقة تفرض عليه أن يكون سنادك في جميع الأحايين ، وأن يؤاخي من آخاك ويعادي من عاداك ، ولو كنت على ضلال . وهل يستطيع الصديق أن يرى في صديقه غير كرائم المناقب وروائع الخصال !

ليس بصديق من يرى عيوبك ، أو يسمع فيك أقوال مبغضيك . وليس بصديق من يجوز عنده أنك واحد من الناس يقترب إليه باسم الصداقة ، ويبتعد عنه باسم العقل . وليس بصديق من لا يراك في جميع أحوالك أشرف الرجال

إن استباح الصديق أن يتعقب صديقه باللام ، في جد أو في مزاح ، فهو عدو يلبس ثوب الصديق

قال الرسول عليه السلام : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »

وقد أوّل قوم هذا الحديث فقالوا إن نصر الأخ الظالم هو تنبيه عن ظلم

وأقول إن هذا الحديث الشريف يرمي إلى غاية لم يفطن إليها أولئك المؤولون ، وهو عندي دعوة إلى العصبية الأخوية ، وهي الغيرة في شرف الأخاء ، وتلك العصبية توجب أن تكون في صفوف الإخوان ولو كانوا ظالمين ، لأن الوداد الصحيح هو الاشتراك الوثيق في المحاسن والعيوب

أقول هذا وأنا أعلم أن في خلق الله من يثور على هفوات صديقه ليتسم بالنزاهة والعدل ، ولو عقل لأدرك أن مؤاخذة الصديق — ولو بحق — هي أقبح ألوان الظلم والجور والإجحاف

مراحل الشيطان

إن جرت العقائد الدينية فالشيطان مخلوق يوسوس لك بالانقطاع ليضلك عن سواء السبيل . وإن جاريت المذاهب الفلسفية فالشيطان هو هواك ، وأنت بين هذين الفرضين مسئول عن مقاومة هذا الهوى أو ذلك المخلوق ، لأنه في حاليه مشئوم مشئوم

يغري الشيطان فيقول : لك أن تختار بين إيثار صديقك وإيثار الحق

وعند هذه الفكرة المضللة تلتفت فترى الحق أجدر بإيثارك فتثور على الصديق

ثم تلتفت مرة ثانية فترى ناساً يُعجبون بشجاعتك ونزاهتك لأنك آثرت الحق على الصديق

وتلتفت مرة ثالثة فتراك وُصفتَ بأوصاف لطاف هي منحة الشيطان لمن يثور على الصديق

ثم تلتفت مرة رابعة فتراك مسئولاً عن تبرير ثورتك على الصديق ، ولا يتم ذلك بغير مآثم يكون منها أنك أشرف من صديقك ، ولا يقول رجل إنه أشرف من صديقه إلا حين يشرف على هاوية الانحطاط !

إن الإفك في محاربة عدوك أشرف من الصدق في محاربة صديقك ، ولك أن تقول إني أفضّل الإفك على الصدق في بعض الأحيان

عِرضُ الصديق هو عِرضُك ، ولن تكون رجلاً إلا حين تفرح بضلال صديقك قبل أن تفرح بهُداه

كن صديقاً صدوقاً ، ثم تجرّد من سائر الفضائل إن شئت ، فما يقيم الله وزناً لغير أعمال الصديق الصدوق

إسمع كلامى ، يا غافل ، إن كان لك سمعٌ أو قلب ، إسمع ثم أجبْ :

هل تعرف لأى سبب قلّت الصداقات فى هذه السنين العجاف ؟

وأساعدك على الجواب فأقول :

قلّت الصداقات ، لأنها جواهر نفيسة وكريمة ، ونحن فى زمن لم يرتفع فيه غير ثمن الرغيف المخلوط بالتراب ... وما أحب أن أزيد !

صورة إسلامية

فى أحد أيام سنة ١٩٣٨ ـ وكنت ضيف العراق ـ أطلعنى السيد صادق الوكيل رحمه الله على قصة صدرت فى بيروت تسمى « خطيئة الشيخ » أو « توبة الشيخ » فما أذكر اسمها بالضبط ، ولعل إحدى المكاتب ترسلها إلىّ بالثمن محوّلاً على البريد فأعرف ما فيها من مقاصد وأغراض

أخذ السيد صادق الوكيل يقرأ من تلك القصة صفحات معيّنة ، وهى الصفحات التى يشرح فيها المؤلف كيفية الوضوء وكيفية الصلاة ، بصورة مُمزِج فيها القصص بالتعليم ، ثم عقّب فقال : ترضينى هذه الطريقة ، فأنا أخشى أن يجيء يوم ننسى فيه كيفية الوضوء وكيفية الصلاة !

وفى صيف سنة ١٩٣٩ قضيتُ أياماً فى الأسكندرية لأستكمل الصور المنشودة لكتاب « أدب الشواطئ » وهو كتابٌ صرفتنى عنه صروف الحرب ، أو صرفنى عنه إقفار الشواطئ من احتراب العيون والقلوب ، وسأرجع إلى إتمامه ونشره يوم يرجع الأمان إلى صدر الزمان

وأواجه الغرض من هذه الكلمة فأقول :

فى ساحة الفتون بالشاطئ الإسكندرى لقينى الشيخ محمد أبو العيون ، وهو ازهرىٌّ طيب القلب جدًّا ، وقد تهمّ حين تراه بأن تسأله الدعاء ، على قلة هذا النوع فى هذا الجيل ، وإنى لأرجو أن يتفضل فيذكرنى بالدعوات الصالحات حين أخطر فى البال

كنت أمتع عينىّ بأحد ملاعب « التِّنِس » فى الشاطئ حين لقينى الشيخ محمد أبو العيون ، وللاعب التنس فوق الشاطئ الإسكندرى جاذبية تفوق الوصف ، ولكن قدوم هذا الشيخ الصالح صدّنى عن ذلك النعيم ، وأشعرنى أن للتقوى جاذبية رائعة ، وأن النظر فى وجه الرجل العابد يوحى من الشعر ما لا يوحيه النظر فى طلعة البدر الوهاج

ولم يكن بدٌّ من صحبة هذا الشيخ فى ذلك الوقت ، وكانت الشمس تتأهب للاستحمام ، وهى تستحم فى البحر كل يوم قُبَيل الغروب ، ولعل هذا هو السبب فى أن جسمها خالد الإشراق !

— هل يضايقك أن نتعشّى معاً ، ياحضرة الدكتور ؟

— أنا لا أتناول طعاماً بالليل ، ويكفى أن أكون فى ضيافتك الروحية

— تعال معى إلى الفندق ، فهنالك مشكلة ينفع فى حلها تعاون الرفاق

— وما تلك المشكلة ؟

— خادمٌ بالفندق يرفض أن يتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة ، مع أنى عرضت عليه خمسة قروش . ولو أنه استزادنى لزدته ؛ ولكنه يرفض

مضينا معاً إلى الفندق لحل تلك المشكلة ، وأنا أبتسم ابتسامةً تخفى على الشيخ ، فمن « المضحك » أن يُفكر روّاد الشواطىء فى تعليم خدَمَة الفنادق كيفية الوضوء وكيفية الصلاة

ونظرتُ إلى الخادم فرأيته فتًى تشهد ملامحه بأنه مسلمٌ لفظاً لا معنًى ، وأن طول عهده بخدمة الفنادق والقهوات راضه على اليقين بأن المصطافين ليس فيهم من يذكر الله بصدق وإخلاص ... وهل تزار الأسكندرية فى الصيف لأداء الصلوات ؟

عرض الشيخ من جديد خمسة قروش ، وعرضتُ عشرة قروش فقبِل الخادم (وهو يضحك ضحكة السخرية) أن يطيعنا فيتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة

أخذ الشيخ يعلّم الفتى كيفية الوضوء بإيجاز ، وكان الموقف فى جملته من غرائب المضحكات ، لأن قروش الشيخ وقروشى جعلت الفتى من المأجورين المأزورين ، ولا قيمة لعبادة يكون جزاؤها بأيدى الناس !

كان الفتى يضحك ويلعب ، ثم تغيّر وجهه فجأة فصار فى خشوع النسّاك ، واحتجزنا ساعتين لنعلّمه سائر الفروض الإسلامية ، ولم يَفُته أن يردّ القروش التى أخذها من الشيخ والقروش التى أخذها منى ، برغم الإلحاح فى قبول الهدية ، وكانت حجته أنه قضى فى صحبتنا لحظات هى أثمن وأنفس من أطايب الأموال

وفى الأسبوع الماضى زرت الأسكندرية لبعض الشئون ، فراعنى أن أجد فتى يجثم على يدى فيقبّلها بحرارة وشوق ، ثم يسألنى الدعاء ، وهو الفتى نفسه ، الفتى الذى علّمناه كيف يصلى وكيف يصوم